الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣٥٢ - شوال ١٤٢٦هـ - نوفمبر ٢٠٠٥م
ALFAISAL MAGAZINE - NO. 352 - Nov. 2005

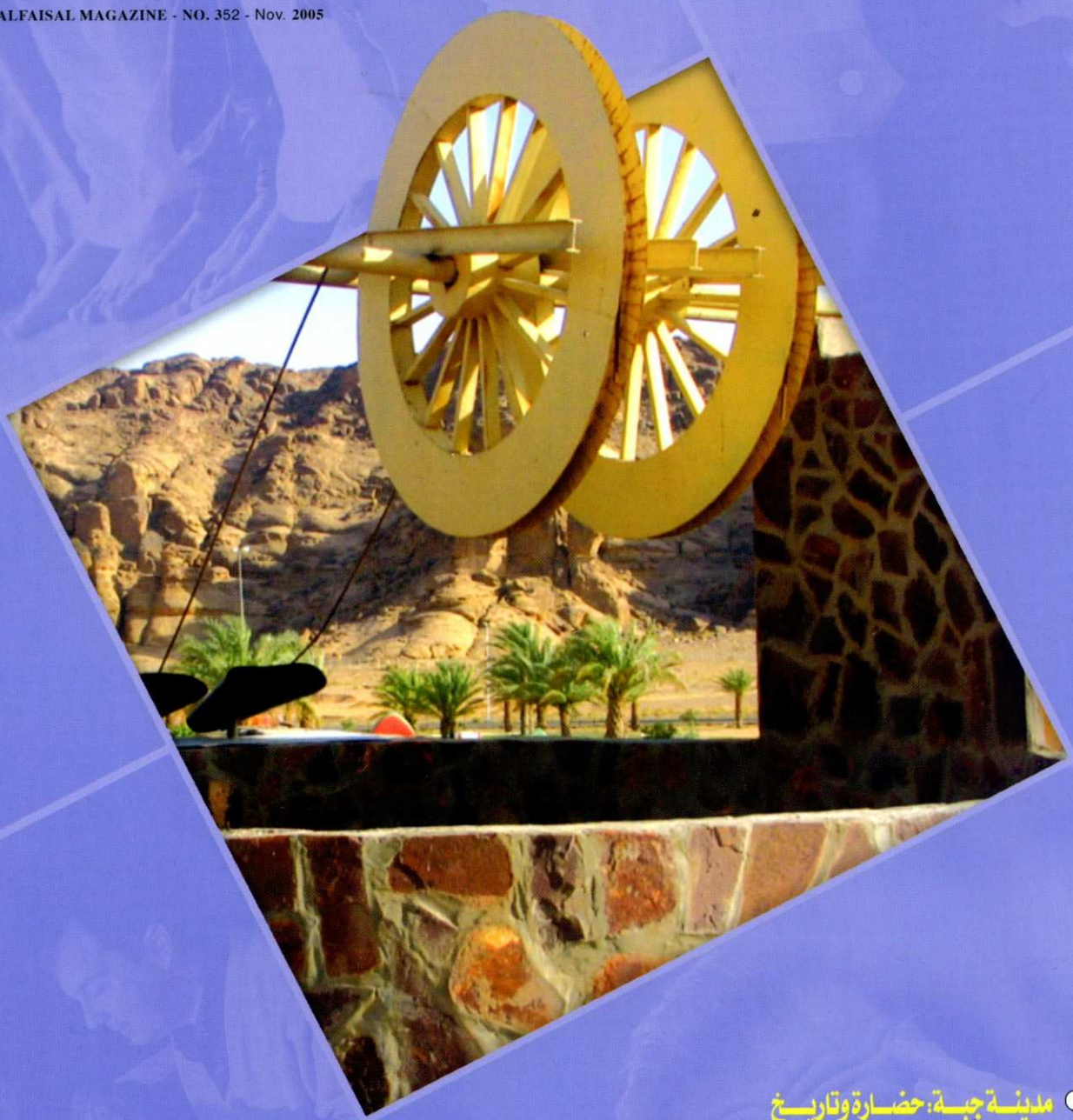

- مدينة جبة: حضارة وتاريخ
- نظرية الطلقة في وسائل الإعلام
- الإسلام شريكًا

Enes Karić

Al-Tarbiyyatu wa t-Ta'limu

Objav. u: Majallat Al-Faysal (Al-Faisal magazine)

No. 352, NOVEMBER 2005.

RIYADH

تعليم

التربية والتعليم

أنس كاريتش

سراييفو ـ البوسنة

يروى في إحدى الحكايات الشهيرة من الكتب القديمة أن أحد الخلفاء حضر مناظرة اختلف فيها الفلاسفة مع العلماء حول ما الذي يغلب على الإنسان: الطبع أم التطبع، الأصل أم التربية، الدم في العروق أم العَرَقُ في مقاعد الدراسة. أما الفلاسفة فقد زعموا أن التطبع عند الإنسان يغلب الطبع، وبقوا طوال المناظرة مصرين على أن التعليم يروض الطبع البشري ويتغلب عليه، وأما العلماء فقد زعموا أنه على الرغم من التعليم فإن الإنسان يغلب عليه هواه وطبعه، ولا سيما في أوقات الشر والحرب والفوضى والفتن، وأنّ الطبع كان دائمًا أقوى من التعليم المجرد وخاصة في مثل تلك الأحوال؛ وذلك لأن الطبع هو باطن الإنسان الثابت الذي لا يقبل التغيير، فهو ما «يجري مع الدم في العروق»! عليه فإن العلماء ميزوا بين التعليم والتربية، وأكدوا أن حسن التربية مع التعليم المتين هما فقط اللذان يمثلان مجتمعين فتحة التصريف الجيدة التي تخفف من حدة تدفق الطبيعة البشرية المجردة.

وبعد أن أنصت الخليفة بإمعان لكلا الطرفين طلب من كل منهما أن يأتي بدليله، وفي الليلة التالية أحضر الفلاسفة

معهم هرة قد دُرِّبت على المشي منتصبة على رجليها الخلفيتين، ورافعة رجليها الأماميتين، وهي تمسك بكوب مملوء بالشاي فتقدمه للحاضرين، وأرادوا بذلك أن يبرهنوا على أن التعليم أهمٌّ من الطبع، وفعلاً قامت الهرة بتوزيع ذلك المشروب المفضل على الحاضرين، وبدا الأمر وكأن العلماء سيخسرون في هذه المناظرة، ولكنهم، على الرغم من إعجابهم بما أبدته الهرة من المهارة، طلبوا من الخليفة أن يسمح بعقد جلسة مناظرة أخرى في الليلة التالية، وأن تُظهر فيها الهرة مرة أخرى المهارات التي دربها الفلاسفة على أدائها، وفي الموعد المحدد انطلقت الهرة توزع أكواب الشاي على الجالسين، وإذا العلماء يخرجون من جيوبهم عدداً من الفئران، ويطلقونها أمام الهرة، فما كان من الهرة إلا أن رمت بأكواب الشاي، وانطلقت تطارد تلك الفئران.

كلنا يعلم أن الإنسان ليس كالهرة، ولكن هذه الحكاية القديمة حول نظرية التربية والتعليم تتحدث، وبعمق شديد، عن المسائل الرئيسة التي تطرح مع بداية ونهاية كل إجراء تعليمي، وكل إجراء تربوي: هل ينحصر دور الأسرة والمدرسة والعمليات التعليمية في تدريس الإنسان وتعليمه أم يجب

عليها في الوقت نفسه أن تربيه وتوقظ في طبيعته كل ما هو نبيل. إن جميع أديان العالم وثقافته تطرح هذا السؤال، ولكن الأديان والثقافات ذاتها هي في الوقت نفسه إجابات عن هذا السؤال.

وفي زمان العولمة التي نعيشها، فإن هذا السؤال يقع في محور حياة الكثير من المجتمعات، ولا سيما في تلك المجتمعات التي نشأت على أيديولوجيات التنوير؛ لأن القرنين التاسع عشر والعشرين قد جلبا أول مرة في التاريخ ظاهرةً لم يَعُدْ معها التعليم مقتصرًا على النخبة من العلماء والرهبان والأعيان والنبلاء والحكام.

لقد أصبح التعليم المدرسي في القرنين الماضيين مُيَسَّرًا في كل مكان ومتاحًا للجميع، وهذا أمر ما كان ليتسبب بأي شر لولا أنَّ هذا التعليم قد فُرِّغَ من محتواه التربوي، ولولا أنه تحول إلى الشكل الجماهيري، أي أن العلم صار في القرون الحديثة ينقل إلى التلاميذ والطلاب والناس جميعًا بطرائق جماهيرية، بحيث صار ينظر إليهم على أنهم مجرد جمهور وحشد. وبما أن الجمهور يمثل مفهومًا جسديًا، فإن صور الأفراد لا تُرى فيه، بل إن الصور والخصوصيات الفردية تضيع فيه تمامًا. لذا فإن الأيديولوجيات على اختلافها وتنوعها في القرنين الأخيرين - سواء في الغرب أو في الشرق - ولا سيما تلك التي نجحت في الوصول إلى السلطة، قد وضعت في برامجها السياسية شعار «تعليم الجماهير الشعبية»، ولم يبق سوى خطوة واحدة صغيرة ليتحوَّل «تعليم الجماهير الشعبية» إلى «ترويض الجماهير الشعبية» ومن المعروف أن الأنظمة الاستبدادية التي نجحت في الوصول إلى الحكم قد خطت تلك الخطوة. ولكن الأمر لم يتوقف بالتعليم الجماهيري عند تحويل الطلاب والمتلقين للعلم إلى حشد وجمهور، بل تم تحويل العلم نفسه إلى جمهور، بحيث صار ينقل في صيغة كتلة من الحقائق المعزولة والمتفرقة عن كل فن من فنون العلم، فالفيزياء مستقلة بنفسها، والكيمياء مستقلة بنفسها، وعلم الأحياء مستقل بنفسه.. وهكذا تحولت العلوم كلها في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى علوم مستقلة وذَرِّيَّة. إن التعامل مع العلم على أنه حشد من الحقائق يتم نقله عن طريق وسائل التعليم الجماهيري إلى ملايين من التلاميذ والطلاب، ويتم توزيعه على انفراد داخل كل فن من فنون العلم التي تفرقت فيما بينها مع مرور الزمن، إن هذا النوع من التعامل قد أدى إلى نتائج رهيبة حيث لم يَعُدْ العالم - من وجهة نظر التعليم الحديث - كيانًا واحدًا متكاملاً، بل مزقته العلوم تمامًا، كما تمزق الوحوش الجيفة، وينفرد كل وحش بقطعة ينتزعها لنفسه.

وهكذا نجد على مدى القرنين الأخيرين أن أنظمة التعليم الجماهيري هذه قد أهملت أكثر فأكثر تربية التلميذ أي تربية الفرد.

لم يَعُدْ التدريس تربيةً، ومع أن النتائج كانت وخيمة جدًا، فإنه لم يكن بالإمكان تجنبها، ولا يحتاج هذا الأمر إلى الكثير من الأدلة والبراهين، فحجرات الغاز في هولوكوست هي من نتاج كبار الأكاديميين المتعلمين، ولكن غير المُتَرَبِّين، كما أن جرائم التطهير العرقي جاءت نتيجة لمشروعات رسمتها عقول كبار الأساتذة المتعلمين، ولكن غير المُتَرَبِّين، وما أكثر ما يكتب اليوم عن هذه النتائج الوخيمة، وعن الكارثة البيئية التي توشك أن تترل بكوكبنا كله.

يمكننا أن نسرد بالتسلسل أسماء العلوم المعروفة كافة في عالمنا اليوم. ويمكننا دائمًا أن نصدر حكمًا قطعيًا على أن الكتب المدرسية التي تقدم تلك العلوم لا تتضمن أي ذكر للثوابت التربوية والأخلاقية

إن الحضارات القديمة كانت تتمركز على ضفاف الأنهار، وسواحل الخلجان البحرية الصغيرة.

إن التعليم الحديث وما أنتجه من حشود بشرية متعلمة، ولكنها غير متربية، قد سمموا تلك الأنهار والخلجان، ولا يوجد عاقل واحد ينفي حقيقة أن التعليم الحديث الذي جُرِّدَ من عنصر التربية لم ينتج سوى جيش مُرَوَّض من العلماء المفتقرين - ليس فقط إلى الإحساس بالحياء من الطبيعة - بل وإلى أدنى تفكير بإمكانية وجوب اشتغال الكيمياء والفيزياء مثلاً بقضية أن يشعر العلماء بالحياء أمام الطبيعة وروعتها وعذريتها.

وإن دَلَّ هذا على شيء فإنه يدل على أن مناهج التعليم الجماهيري بتجريدها للتعليم من عنصر التربية قد أوصلتنا إلى معرفة متحللة من المسؤولية إلى حدّ الوقاحة والغطرسة.

فالإنسان المتعلم وغير المسؤول يشبه تلك الهرة المُدَرَّبة التي تحدثنا عنها في بداية هذا المقال. إن إنسانًا بهذا التعليم، وإن إنسانية بهذا التعليم، بل إن هذا التعليم ذاته سوف يتقهقر، ويكون دائمًا الخاسر أمام تدفق الفطرة المجردة. ولكن جموح هذه الطبيعة البشرية المجردة المتسلح بهذا التعليم المنفلت من أية مسؤولية، ليمثل خطرًا أكبر بكثير من اندفاع تلك الطبيعة عند «بربري» غير متعلم.

ويكفينا هنا، ضمن سياق التصريح السابق، أن نتذكر القصة المجازية عن الإنسان الذي كان يتخذ من الكهوف الطبيعية بيوتًا للسكنى. إن هذه القصة المجازية مفضلة في الدين والفلسفة والتاريخ والفن.. وكما أن الحلزون لا يتخلى عن بيته الذي يحمله على ظهره، فإن الإنسان لم ينس الكهف الذي كان يقطنه في الماضي السحيق، إنه يحمله في أعماق فطرته، أو إنه - على أقل تقدير - لا يزال يحتفظ بذكريات بعيدة عن ذلك الكهف.

إن الكهف يقابله في الشرائع والأديان المعبد (والكعبة في الإسلام معبد) والمعبد رمز للإيمان والاعتدال، والنظام والتناظر، إنه رمز للتربية، إنه في نهاية المطاف الحد النهائي الذي لا يجوز تخطيه، ولكن الكهف بقي محفورًا في ذاكرة الإنسان السحيقة.

والإنسان عبر التاريخ يعود في دورات متفرقة إلى الكهف والنار والدخان والصيد والنهب.. ويصعب عليه أن يتخلص من نداء النهب والسلب. إن التعليم المعاصر الذي جُرِّدَ من التربية قد أدى إلى ظاهرة سخيفة ومنافية للمنطق تتمثل في كون حروب «سكان الكهوف» دعابةً بريئةً بالمقارنة مع حروب السكان المتمدنين والمتسلحين بعلمٍ حَصَّلوه بالترويض.

ومع أن البشرية قد عرفت في القرنين التاسع عشر والعشرين أعلى درجات التعليم في تاريخها، إلا أن الحروب التي اندلعت في القرون الأخيرة تشير إلى أن هذا التعليم لم يمنح البشرية المتعلمة القدرة على التخلص من نداء الكهوف والنار والنهب، ومن نداء الصيد والسلب، بل إن الأنكى والأسوأ من ذلك أن البشرية اليوم في استجابتها لهذا النداء أكثر خطورة؛ لأنها أكثر فعالية في ممارسة الشر. إن البشرية المتعلمة وغير المتربية قد أحرقت في الغرب والشرق عشرات المدن على أقل تقدير في حروب القرن العشرين.

وكأن البشرية كلها، المتعلمة وغير المتربية، ترغب أن تحول العالم بأسره إلى كهف يغطيه مشهد ضخم من النيران واللهيب والدخان...

لقد تحدث جلال الدين الرومي عن الإنسان المتعلم

أصبح التعليم المدرسي في القرنين الماضيين مُيَسَّرًا في كل مكان ومتاحًا للجميع. وهذا أمر ما كان ليتسبب بأي شر لولا أنَّ هذا التعليم قد فُرِّغَ من محتواه التربوي. ولولا أنه تحول إلى الشكل الجماهيري

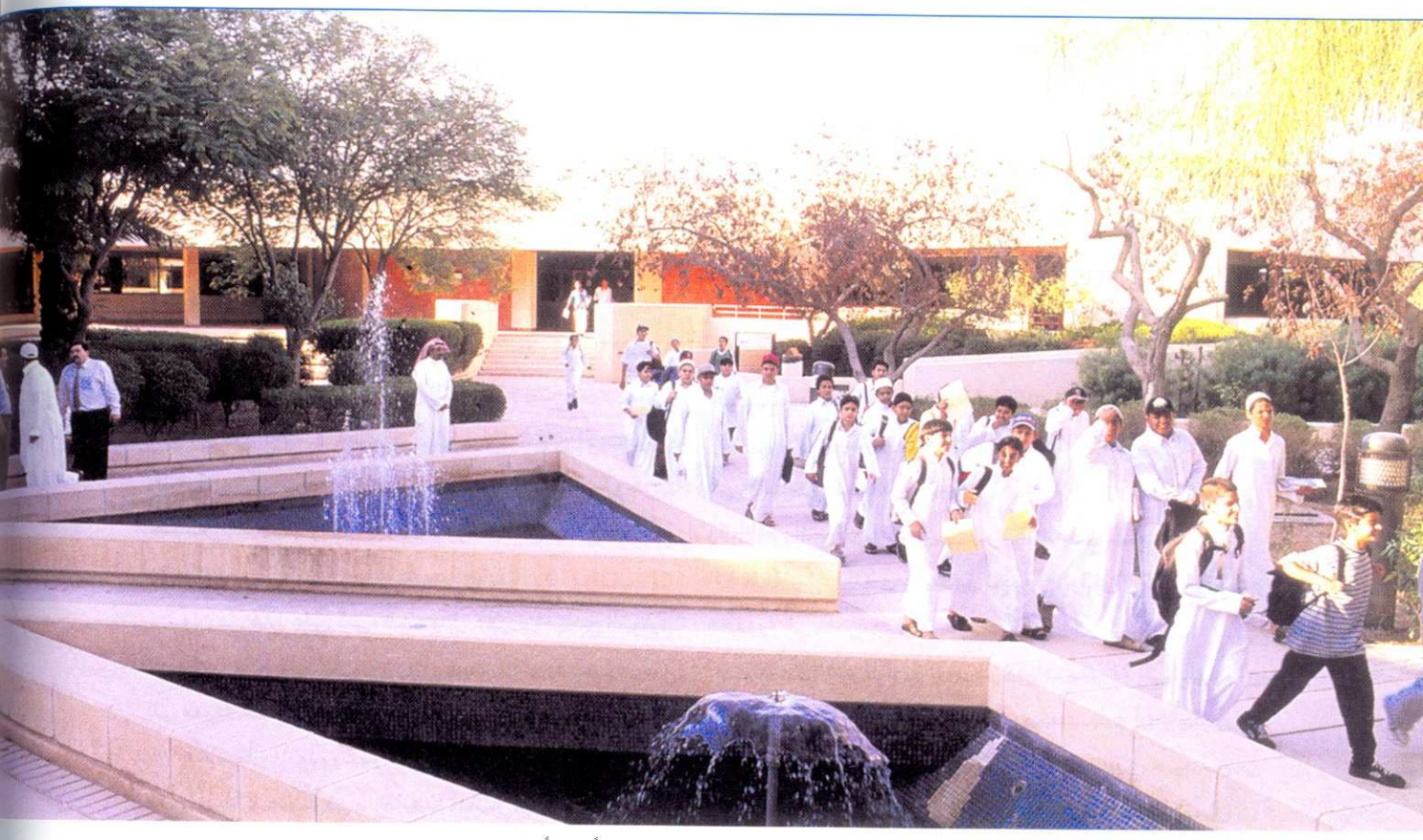

أصبح التعليم المدرسي في القرنين الماضيين ميسرًا ومتاحًا للجميع

وفاقد التربية، وكيف أنه يستفيد من عقله تمامًا، كما يستفيد اللص من الشمعة وهو يسرق!

ومنذ عشر سنوات على الأقل ونحن نسمع الأخبار التي تتحدث عن تكرار الحوادث التي يطلق فيها تلميذ أو مجموعة من التلاميذ النار من البنادق الأوتوماتيكية على أترابهم فيقتلون أو يجرحون أعدادًا كبيرة منهم.

واليوم يجري الكثير من التحليلات لهذه الأخبار والظواهر، ولكن ما يغفله الكثيرون من المهتمين بسبر أغوار هذا الشر - وإن كانوا لا يَسْعَوْنَ إلى الحد منه - أن مثل هذه الأخبار إنما تمثل أنباءً عن النتائج، وليست عن الأسباب.

إن الأسباب أكثر عمقًا بكثير، سواء في الغرب أو في الشرق، وعمرها لا يقل عن قرنين من الزمان أو أكثر. إن التعليم الجماهيري والمدارس الحديثة تستقبل التلاميذ بمختبرات مرتبة، ومناهج تعليمية، وكتب مدرسية فعالة، ولكن الكتب المدرسية في الفيزياء الحديثة لا يوجد فيها ذكر للحياء، كما أن الكتب المدرسية في الكيمياء الحديثة لا تحتوي على كلمة واحدة عن الخجل، أما الكتب المدرسية في علم الأحياء فلا يوجد فيها ولو مجرد إشارة إلى التواضع...

ويمكننا أن نسرد بالتسلسل أسماء العلوم المعروفة كافة في عالمنا اليوم، ويمكننا دائمًا أن نصدر حكمًا قطعيًا على أن الكتب المدرسية التي تقدم تلك العلوم لا تتضمن أي ذكر للثوابت التربوية والأخلاقية، فضلاً عن أن تكون تلك الكتب

مصممة وفقًا لتلك الثوابت، وعلاوة على ذلك فإن الأصوات التي تلح على المطالبة بإدراج المضامين الأخلاقية في الكتب المدرسية، تواجَهُ في عالمنا اليوم بالسخرية والاستهزاء، وكأن الإنسان إنسانٌ بعقله فقط، وليس إنسانًا بحيائه! وهذا يدل على أن تلك الكتب المدرسية تقرأ الطبيعة عمومًا، والطبيعة الإنسانية خصوصًا، وكأنها آلة، ولا تقرأ على صفحاتها المتعددة ذلك الهدف السامي الموجود وراء مستويات العالم التي ندركها بالعقل. إن كتب الفيزياء والكيمياء والأحياء لم تُفَرَّغْ من الحياء والخجل وتأنيب الضمير فقط.. بل إنها فُرِّغَتْ من الروعة والجمال والخلود .. ومن العالم والطبيعة. وعلى سبيل المثال: نجد أن التعليم المعاصر ما عاد يندهش أو يعجب من طبيعة الماء البديعة، ومنذ فترة بعيدة والتلاميذ والطلاب يدرسون الماء على أنه مجرد ثروة صناعية! ويدل هذا على أن تلك الكتب المدرسية العصرية تُعَلِّم، ولكنها لا تُرَبِّي. والتربية قبل كل شيء تعني الاعتراف بالهدف السامي، والسبب الرفيع للتعلُّم والعلم والتعليم. إن التربية تقوم على الثقافة، والثقافة تقوم على الدين، والدينَ يقوم على المَقْصَدِ الأخير ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

إن معرفة القوانين الهيدروليكية ومعرفة إقامة شبكة المياه أمر يستند إلى التعليم، أما الاغتسال بالماء فَمَرَدُّهُ إلى التربية والثقافة. ومعرفة صيغة الصابون وصناعته أمر علمي، أما استخدام الصابون عند الحاجة فهذا مَرَدُّهُ إلى التربية.

إن معرفة القوانين الهيدروليكية ومعرفة إقامة شبكة المياه أمر يستند إلى التعليم. أما الاغتسال بالماء فَمَرَدُّهُ إلى التربية والثقافة. ومعرفة صيغة الصابون وصناعته أمر علمي. أما استخدام الصابون عند الحاجة فهذا مَرَدُّهُ إلى التربية

إن الأنظمة العصرية لا بد لها - عاجلاً أو آجلاً - أن تستعيد في ذاكرتها المناقشات الكلاسيكية حول روح الإنسان والتربية، ولا بد لها من العودة إلى معلمي الإنسانية القدماء الذين حددوا مجال التعليم ومجال التربية. وكما أن التعليم تدريب للقدرات الذهنية فإن التربية تنوير للضمير الداخلي، وتنوير للقلب ذاته. ولذلك فإن التعليم والتربية جانبان متساويان ضروريان لاعتدال الإنسان الروحي، تمامًا كما يحتاج الطير إلى جناحيه ليطير، ويحلق بشكل متوازن.

ولكن التعليم الحالي يعاني خللاً كبيرًا في التوازن بين هذين الجانبين؛ لأن التعليم من دون تربية يريد أن يتحول إلى قوة هدامة تهيمن على الطبيعة، وعلى المجتمع البشري. أما التربية المجردة عن التعليم فمع أنها تؤدي إلى الاستقامة الأخلاقية إلا أنها مع مرور الزمن تضعف، وتتحول إلى المواساة، كملجأ وحيد يُلجأ إليه.

إذن، عند إقامة التوازن من جديد بين ذاك «كيف نتعلم» وذلك «كيف ينبغي» و«كيف نحسن صنعًا» لا بد لنا أن نستحضر في أذهاننا أن التعليم والتربية ليسا عمليتين يكتسبهما الإنسان مرة واحدة إلى الأبد، كما يكتسب الأسنان الدائمة بعد زوال أسنانه اللبنية، بل إن التعليم والتربية عمليتان مستديمتان ومتجددتان، ينبغي دائمًا الرجوع إليهما والسهر عليهما، مثل الطير الذي لا يفتأ يضرب بجناحيه الاثنين ليحافظ على تحليقه في الهواء.

وعندما يتعلق الأمر بالتربية والتعليم فإن السؤال الرئيس الذي سنبحث عن إجابة له في القرن الحادي والعشرين هو: كيف التوصل إلى التعليم المربي، وكيف نحقق التربية المتعلمة؟

والبشرية التي تنجح في التوصل إلى هذه التركيبة ستكون هي البشرية السعيدة.